منتدى الدول المصدرة للغاز وتقاسم المصالح

د. محمد سليم وهبه، استاذ في الجامعة اللبنانية

بمجرد ان اختتمت القمة الثالثة لمنتدى الدول المصدرة للغاز في طهران، اسقطت مقاتلة روسية فوق سوريا من قبل مقاتلات تركية، رغم ان القمة هي قمة اقتصادية بامتياز، وتهدف الى التأكيد على أهمية التعاون والتنسيق بين البلدان الأعضاء في المنتدى عن طريق تبادل المعلومات في مجال صناعة الغاز وكذلك على مزايا الغاز الطبيعي كمصدر نظيف وغزير للطاقة ومساهماته في تحقيق التنمية المستديمة في العالم، لكن الغرب اعتبرها تهديدا لتطال مصالحه الاستراتيجية ومصالح شركاته التي تعمل في مجال الطاقة.

قراءة المؤتمر بمنظور المصالح والتنافس الاقتصادي وحماية راس المال له ابعاد تطال شركات الطاقة التي تستثمر بمليارات الدولارات والتي تسيطر على قرارات الدول، فعندما تستثمر شركة بريتش بتروليوم" بقيمة 12 مليار دولار في حقل غاز بغرب دلتا النيل، اشركة ايني الايطالية في البحر المتوسط قبالة السواحل المصرية بقيمة 7 مليارات دولار، او شركة غاز بروم في السودان ونيجيريا، فهذه الشركات مستعدة وتحت وصاية الراسمالية ان تستميت في المحافظة على اسواقها.

زغم دعوة المنتدى لكافة منتجي الغاز في العالم،والذي يضم 12 دولة هي: إيران وروسيا والجزائر ومصر والإمارات وغينيا الاستوائية وليبيا ونيجيريا وقطر وترينيداد وتوباغو وفنزويلا وعمان، وتمتلك هذه الدول أكثر من ثلثي احتياطي الغاز في العالم، وتساهم في حوالي 85 بالمائة من تجارة الغاز حول العالم، كما تمتلك 40 بالمائة من خطوط أنابيب نقل الغاز.

يهدف المنتدى حماية المصالح المشتركة لليلدان الأعضاء لمنتدى الدول المصدرة للغاز عن طريق تطبيق السياسات والاستراتيجيات المنسقة على الصعيد الدولي، وكذلك النهوض بنسبة استهلاك الغاز الطبيعي بوصفه أنظف وقود يلعب دوراً حيوياً في تركيبة الطاقة العالمية بهدف نيل التنمية المستديمة، يعني ذلك اعلان حرب على الشركات النفطية والتي تسيطر على اسواق الطاقة في العالم.

فاعتماد الغاز قد يخفض من قدرات البترودولار والصناديق السيادية التي يسيطر عليها الدولار في موضوع التسعير، والتعديلات قد تكون مؤلمة على الدولار خاصة بوجوه قوى مساعدة على صعيد عالمي واجه بنجاح الاحادية الاميركية. كذلك ان المؤتمر سعى لتسهيم المجازفات في مقولة تحديد السعر وآلية تسعير الغاز الطبيعي والاذعان بضرورة التوصل الى سعر منصف ومعقول للغاز الطبيعي بوصفه مصدرا متجددا وكذلك مزاياه من حيث فاعلية الطاقة وقضايا البيئة.

يشكل الغاز الطاقة النظيفة الفاعدة في القرن الواحد والعشرون، سواء من حيث البديل الطاقي لتراجع احتياطي النفط عالمياً أم من حيث الطاقة النظيفة. وإن السيطرة على مناطق الاحتياطي (الغازي) في العالم تعتبر بالنسبة للقوى القديمة والحديثة أساس الصراع الدولي، خاصة مع توقعات لنمو الطلب بنسبة 32% يحلول عام 2040.

على مدى القرون الماضية كانت الحروب والصراعات الدولية العالمية والاقليمية للوصول إلى منابع النفط والغاز الفذان يشكلان على مدى التاريخ توأم الاكتشافات والصراعات الاستعمارية في المنطقة العربية على وجه الخصوص، والعالم بوجه العموم. ولعل كان آخرها الحرب على العراق 2003.

ومجددا، وما يعصف بالمنطقة من اضطرابات، يؤكد أن الخلفية الأساسية التي تكمن وراء أحداث الشرق الأوسط، ليست سياسية إنما تتعلق بالدرجة الأولى بالغاز وموارده، أي أن الحروب في ليبيا وسورية ولبنان واليمن ومصر وتونس، ما هي إلا تبعات للسيطرة على منابع الغاز وأسواقه. إذ يشكل الغاز الطاقة الرئيسة في القرن الواحد والعشرين، سواء من حيث بديل الطاقة المناسب للنفط، لا سيما مع تراجع احتياطي النفط عالمياً، ولكونه أقل ضرراً للبيئة، ناهيك انه لم يعد امتلاك السلاح المتطور مصدر قوة للاعبين الكبار بقدر امتلاكهم لمصادر الطاقة الأساسية، وحسب توقع خبراء الطاقة سيكون الغاز هو الوقود رقم واحد مع حلول عام 2030، مع الاشارة الى ان النفط العربي في الخليج سينتهي في يوم من الأيام والصراع المخفي حالياً هو على حقول غاز طبيعية جديدة، إذ تشير التقارير الأولية إن مصادر النفط والغاز شرقي المتوسط تقدر بنحو (1,68) مليار برميل من البترول، وبنحو (3450) مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي عالي الجودة، وفي حوض النيل بمصر تقدر بنحو (1,76) مليار برميل من النفط ونحو (6850) مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي عالي الجودة، واجمالي التخزين في الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط بنحو(3M) مليار برميل من النفط الخام، ونحو (9700) مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي.

وبالتالي موضوعي عن النفط والغاز، يعني راس المال والاستثمار والمصالح فلا ينظر في سقوط الطائرة الى الطيار الانسان الذي كان يقودها، بل الى المنظور الاستراتيجي على صعيد صراع السلطة والمال للشركات الكبرى، فتركيا تريد ان تكون المسيطر الاستراتيجي على امدادات الغاز الى اوروربا ليس من اجل من اجل المداخيل التي ستوفر لها هذه الامدادات من جهة والى الاسواق ستفتح لها في اوروبا مع اعطائها حق الاقرار والقرار في قبرص، وفي المقابل فان لدى روسيا مصلحة حيوية في السيطرة على إمدادات الغاز إلى أوروبا، حيث تبيع "غازبروم" 80 % من إحتياجاتها من الغاز، وهنا تضيع دموع اهل الضحايا واولادهم وزوجاتهم. وخلف السياق الاستراتيجي بين

مشروعي لاسيطرة على أوروبا من ناحية وعلى مصادر الغاز من ناحية أخرى تضيع كل المعايير الانسانية والفكرية، والقواعد الاخلاقية والاجتماعية.

وحسب المحللين فإن لعبة النفط والغاز هدفها المال، ففي العام 2002، عقدت الولايات المتحدة صفقة مع تركيا وأعلنت واشنطن عن خط غاز نابوكو، وابركت أن الغاز في آسيا الوسطى محال أن يصلها وفي إيران الحرب شبه مستحيلة ولكن روسيا لم تكن تدرك أن غاز البحر المتوسط هو ما كانت تريده واشنطن وتخطط له، فواشنطن حين أعلنت عن خط نابوكو كانت تعتقد موسكو أن هذا الخط ولد ميتاً، ولكن واشنطن كانت تخطط للحصول على الغاز من مصر وساحل المتوسط فلسطين ولبنان وقبرص، ومع تقسيم وتدمير سوريا ستحصل حكماً بلا حرب على الغاز الإيراني والمتوسطي، وبالتالي حكماً لن تستطيع بعدها موسكو شراء الغاز الأذري فبذلك تفقد موسكو نفوذها في المتوسط وأوروبا ووسط آسيا دفعة واحدة وتكون واشنطن سيطرت على العالم للأبد.

ولجأت واشنطن إلى حلفائها الجدد في أوكرانيا للضغط على الغاز الروسي، لكي تضمن الولايات المتحدة الدعم الأوروبي لمشروعها القادم، وفعلاً قطعت موسكو الغاز عن أوروبا أسبوعين، وتبعا ليعض التحليلات فتكون واشنطن قد أرسلت رسالة لأوروبا بضرورة عدم الاعتماد على الغاز الروسي، وبينما روسيا أرسلت رسالة بأن دول عبور الغاز هامة، وبالتالي حتى لو جاء الغاز من مكان ثاني فضربه سهل.

تدرك الولايات المتحدة الامريكية، إن خريطة الغاز في قارة آسيا، تشمل كل من تركمانستان وأذربيجان وإيران ومصر، إن السيطرة على هذه المنابع تعني بقاءها قطب أوحد يدير العالم، فهي قادرة على منافسة الغاز الروسي، وكون غاز أذربيجان وتركمانستان صعب الوصول إليهما كونهم في منطقة النفوذ الروسي، فإن الوصول لهما سهل في حال سيطرت على غاز المتوسط وزودت أوروبا بالغاز المتوسطي، عندها تصبح موسكو عاجزة عن شراء الغاز من آسيا الوسطى التي سترغم على الدخول في النفق الأمريكي.

أمبركا اشتعلت حربا مع روسيا في جورجيا لإحباط خطط لتصدير الغاز من منطقة بحر قزوين الى الغرب واشتعلت حربا في أوكرانيا من أجل منع عبور روسيا الى أوروبا.

سارعت موسكو بالرد، حيث أعلنت غاز بروم بأنها ستستثمر في مشاريع الغاز في دول أمريكيا اللاتينية وأفريقيا وآسيا وحتى واشنطن ستجد نفسها تشتري الغاز من روسيا، وأعلنت روسيا عن أربع خطوط كبيرة لنقل الغاز وبدأت فعليا بالعمل وهو كالتالي :

السيل الشمالي يوصل الغاز من شمال روسيا إلى ألمانيا عبر البحر دون المرور ببيلاروسيا وبدأ تنفيذ هذا المشروع فعليا، وبالتالي خف الضغط الأمريكي على روسيا البيضاء لأن إسقاط بيلاروسيا لن يفيد بعد الآن بوقف إمداد الغاز.

السيل الجنوبي ويوصل الغاز عبر البحر الأسود إلى بلغاريا ومنها يتوزع ذلك الخط عبر رومانيا هنغاريا النمسا وجنوبا عبر اليونان وإيطاليا وقد تم إنجاز معظم الاتفاقيات لمد هذا الخط.

السيل الأزرق وهو يوصل الغاز عبر تركيا ومن ثم سوريا والأردن لمد الأردن وإسرائيل بالغاز، كما ان هذا يثبت أن موسكو لم تكن تعلم بوجود الغاز في المتوسط، وقد تم إلغاء هذا الخط فعلياً بعد أن علمت باحتياطات الغاز في المتوسط وقامت مصر بمد خط الغاز المصري وذلك لتصدير الغاز الى كل من الاردن وفلسطين و سوريا فيما بعد.

مد خط غاز من نيجيريا إلى النيجر فالجزائر لتسييل الغاز ونقله إلى أوروبا، ولاحقا يتم مد أنبوب إلى أوروبا وكانت مصر اسرع وقامت بإنشاء محطة سيجاس (بونيون فينوزا) لإسالة الغاز الطبيعي في دمياط بالتعاون مع اسبانيا والبيان.

كما قامت غاز بروم الروسية بالاستحواذ على نصف حصة شركة ايني الايطالية في ليبيا وبدأت بالاستثمار في السودان، وتشمل مشاريع غاز بروم المشتركة مع ألمانيا مشروع وين غاز المشترك مع وينترشال أحد فروع (BASF) وهي أكبر منتج للنفط والغاز في ألمانيا وتسيطر على 18% من سوق الغاز.

الهدف هو الاقتصاد، والاحداث ليست سوى صورا في افلام خيالية لا ينظر بها الى الدماء والموت والانسان، فتمط لتسهيل مناورات شركات الطاقة في العالم، لذا وفي منطقة الشرق الاوسط نعيش في نقيض فمن جهة ان اميركا تعتبر ان تسليم سوريا للمصالح الروسية والايرانية سيكون كارثة، مع الاعتبار ان أية تسوية سياسية للأزمة في سوريا او في المتوسط بشكل عام او اليمن او في اي منطقة تحتوي على الغاز يجب أيضا أن توفق بين المصالح المتنافسة على الغاز نفسه، وبالمقابل فان الحصول على الغاز في المتوسط يحتاج الى سلام في المنطقة والسلام في المنطقة وفق الشرعية الدولية، سيكون بداية نهاية إسرائيل، وهنا المسارعة في تصفية القضية الفلسطينية والقضاء على المقاومة في لبنان.

وأن كان واضحا أن صناعة الغاز تشهد تحركات صوب التكتل، لاسيما من جانب إيران الساعية لنفض غبار العقوبات الدولية عنها، والحصول على موطئ قدم على خريطة الطاقة عالمية، وكذلك روسيا التي تحت الخطى أيضا نحو هذا التكتل، لاسيما بعد تفجر الأزمة الأوكرانية العام الماضي وانعكاساتها على العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الاتحاد الأوروبي، حيث تطمح موسكو لفتح أسواق جديدة والضغط على أوروبا عبر الطاقة، لا بد من التنبه الى الخطر الارهابي الذي يعتل ورقة كبيرة بيد الغرب قد تضرب في اي مكان، وزمان، بتغطية من الغرب الذي يضرب سوريا هذا الارهاب، تحت عدة تبريرات، ويحميه حتى ولو تطلب ذلك التدخل العسكري المباشر، ولا صوت فوق صمت الاقتصاد.